دولة المؤسسات: إشكاليات تحديث النظام

مداخلة زيـاد بـارود

"لا أريد أن يكتب عني أحد، ولا أن يدافع عن عهدي أحد (...). لا أريد تبرير شيء. وحده التاريخ يبرّر."

في زمن العزوف عن الدولة والسعي إلى رئاستها، نستذكر زمنا آخر... زمنه، هو، كان زمن العزوف عن الرئاسة والسعي إلى الدولة، لا العزوف عن الأخيرة سعيا إلى الأولى...

في بيان العزوف الشهير، نقرأ دولة الإشكاليات، لا المؤسسات، وبين سطوره نفهم سقوط مؤسسات تحديث النظام! هو لم يكن بيان عزوف عن الترشّح، بقدر ما كان عزوفا عن خذل الناس وإحباطهم! ولعلّ أخطر ما في البيان أن موقّعه آتٍ من تجربة الحكم، بل من محرابه. في أسطرٍ قليلة، وإنما كصمته معبّرة، أخبر الرئيس فؤاد شهاب، من لديه أذنان سمعتان، أن إشكالية الدولة في نظامها وأن أزمة النظام هي في مؤسساته وربما أيضا... في ناسه!

هذا المترهّب في كنف الدولة، ضابطا وقائدا ورئيسا، ثم، مجددا، مواطنا من الدرجة الممتازة ومن الصنف المعرّض للانقراض، الذي كتب عام ١٩٧٠ عن وهن المؤسسات في بيان العزوف، هو ذاته ذلك الرئيس الذي دفع عام ١٩٥٩ بمراسيم تشريعية أسّست لمؤسساتٍ لم نكمل، نحن، بناءها. حسبه أنه حاول، وحسبه أنه أحدث خرقا في جدار ممانعة الإصلاح، وحسبه أنه اعترف أن "المؤسسات السياسية اللبنانية والأصول التقليدية المتبعة في العمل السياسي لم تعد تشكّل أداة صالحة للنهوض بلبنان (...)".

لست هنا في معرض تقييم التجربة ولا التركيز على بيان العزوف، على أهميته وتاريخيته. بل أحاول فقط أن أدّعي أن انكفاء جبل بحجم فؤاد شهاب عن مواجهة إعصار بحجم مثلّث الفساد والزبائنية والفروماجيست (fromagistes)، هذا الإنكفاء، يستدعي الإعتراف بأن الأزمة بنيوية وهيكلية وتنخر في عمق النظام تآكلا. وللدلالة، لا بأس من التذكير بأن "دولة المؤسسات" تكاد لا تستحق هذه التسمية لو لم تصدر سلّة المراسيم التسع وخمسينية التي شاءها فخامة الأمير مدخلا لإرساء حكمه على قاعدة المؤسسات الضامنة في الإدارة والإمرة الحازمة في الجيش "والمهمات التي يجب على الدولة أن تؤديها والهالة التي يجب أن تلازمها". ماذا تعني دولة المؤسسات التي يستذكرها بعض أهل الساسة على حين حاجة، إذا لم يكن "الكتاب" أساسها؟ وماذا تعني في غياب إدارة يضبطها مجلس خدمة مدنية وتفتيش مركزي؟ ماذا تعني تلك

الدولة إذا أضاء ديوان المحاسبة في تقريره على مخالفة عظمى، ثم انطفأت عظمتها لأن رأي الديوان تسحقه قرارات خفية في دواوين أخرى لا تخفى عليكم.

في حزيران من العام ١٩٦٤، كتب عميد "النهار" غسان تويني (ولم يكن الرجل شهابيا): "إن دور فؤاد شهاب، بل رسالة فؤاد شهاب لم تنته ولن تنتهي في ٢٣ أيلول. مثله من الرجال، إذا وضع التاريخ يده عليهم أحياء، قبض عليهم، جنّدهم إلى لا تقاعد، وحمّلهم المسؤولية بعد المسؤولية". وبعد نصف قرن بالتمام، ها نحن نجتمع، وربما نُجمع، لنقول إن رسالة الرئيس شهاب مستمرة بحكم الضرورة والحاجة إليها، وبحكم انكفاء المؤسسات "البراعمية" لصالح نوع آخر من المؤسسات المنظمة جدا: أوليست المافيا مؤسسة؟ ألم تكن الميليشيات منظمة؟ ألا تدور حركة المصالح الخاصة جدا في شبكة منظمة جدا، كما المؤسسات؟

أيها الأصدقاء،

صحيح أن الغاية من بناء المؤسسات تخطّي الأشخاص، لكن أشخاصا من طينة فؤاد شهاب ورفاقه هم الذين يبنون المؤسسة. وإذا كان هذا البناء غير المكتمل شهابيا، قد تعرّض ولا يزال يتعرّض، لشتّى أنواع الزلازل والاحتلالات والتخريب وتفكيك الأوصال والعزل والتأجير بغير حق وخرق وجهة الاستعمال المألوفة، فإن اللبنانيين يقفون اليوم أمام "بيتهم بمنازل كثيرة" كمن يقف على عتبة. والخيار لهم،

لا لسواهم. خيار العبور إلى تحديث بيتهم الداخلي وكذلك إطلالته الخارجية أو خيار تهالك المنازل وسقوطها على رؤوس أولادهم. هذا الخيار لم يحسنه اللبنانيون في الغالب، فسقطت جدران وتهاوت أوصال. لكنهم اليوم أمام تحدّي الجدارة. أولادهم خرجوا، فتعلّموا. هاجروا، فأبدعوا. انتفضوا فغيّروا. هؤلاء الأولاد كبارا ذاقوا طعم الحداثة والتحديث وقرأوا وصية فؤاد شهاب، وهم اليوم على عتبة بيتهم بمنازله الكثيرة ينتظرون. على أحدهم أن يأخذ المبادرة. على أحدهم أن يكون شهابيا عام ٢٠١٤، لا حبّا بشخص يستحق محبّة الناس، بل استكمالا لرسالة بدأت ولم تنجز.

وعلى ذلك، فإن خارطة الطريق سهلة وصعبة في آن. سهلة لأن أبناء البيت ضنينون به وببنائه، وصعبة لأن الزمن حلّ في أرجائه ضيفا ثقيلا ولأن الترميم أصعب من البناء من عدم.

هذا الترميم لا بدّ أن يبدأ بتدعيم الأساسات، أي "الكتاب" (كما كان يحلو لشهاب تسميته). تحديث النظام، يمرّ إلزاميا بسدّ الثغرات في الدستور، تلك الثغرات التي تجعل المؤسسات، وعلى رأسها رئاسة الجمهورية، غير قادرة على أداء أدوارها بفعالية. والدستور، وهو الناظم للحياة السياسية، هو الممرّ الإلزامي في اتجاه الاستقرار، خصوصا إذا ما تضمّن آليات فعّالة لحل النزاعات. إشكالية نظامنا ليست في تنوّع لبنان الديني والطائفي والسياسي والفكري والثقافي. تلك كلّها مصادر

غنى. إشكالية نظامنا هي في إخفاقه المدوّي في إدارة ذلك التنوّع. وطالما هذه الإدارة غائبة، فلا أمل في استقرار أو تقدّم أو حداثة.

وتحديث النظام هو تحديث للبناء الهيكلي على مستوى التشريعات والمؤسسات. واسمحوا لي هنا أن أخالف كثيرين دعوتهم إلى قيام "دولة القانون". هذه الدولة التي تتبع القانون، كالنعت الذي يتبع المنعوت، ستستحيل دولة الظلم إذا كان القانون ظالما. أولم يكن كذلك ظالما في الانتخابات والعنف ضد النساء والعنف من نوع آخر ضد الصحافة والإعلاميين؟ تعالوا، على نمط فؤاد شهاب، إلى دولة الحق، فالحق مطلق ومجرّد، وحبّذا لو تتبعه الدولة نعتا. دولة الحق هي دولة حقوق الناخب والمرشح والأجيال التي لم تولد بعد. هي دولة النساء الشريكات الكاملات في خيارات الرجل الندّ. هي دولة القضاء يقطع بسيف الحق، لا القانون، كأني بلقمان يقول لابنه: "أحكم الناس بالعدل، لا بالقانون"!

وفي دولة الحق، تبرز المؤسسات متقدّمة على الأشخاص. حتى فؤاد شهاب في عظمته كتب في عزوفه يسأل عنها. لم يؤسفه تطاول وتجنٍّ عليه وعلى فريقه، بل هاله "أن مؤسساتنا التي تجاوزتها الأنظمة الحديثة في كثير من النواحي سعيا وراء فعالية الحكم، وقوانيننا الانتخابية التي فرضتها أحداث عابرة وموقتة ونظامنا الاقتصادي الذي يسهل سوء تطبيقه قيام الاحتكارات، كل ذلك لا يفسح في المجال للقيام بعمل جدي على الصعيد الوطني". هذه المؤسسات تحتاج إلى نفض الغبار عن آليات إدارة

عفنة وتحتاج إلى إدخال ما يتقنه اللبنانيون واللبنانيات من كفاءات وجدارة إلى قلب الإدارة.

"ليس القلب هو الذي يحتاج إلى الدم، بل الأطراف". قالها شهاب يوما. وتابع: "وعندما أمنع الدم عنها تضعف وتهزل وتيبس. هكذا حال المناطق النائية الفقيرة." هو شهاب اللامركزية، التي لا نزال نبحث عنها بدل أن نبحث فيها. لامركزية تحديث النظام وإدارة التنوّع. لامركزية التنمية والمشاركة...

ماذا تراه كان ليقول، فؤاد شهاب، لو قدّر له أن يعيش أزمنتنا الانتخابية المأزومة؟ هل كان ليكتب مجدّدا بيان عزوف عن الترشيح؟ أغلب الظن أن نعم... وربما كان ليضيف إليه بضعة أسطر يسألنا فيها، عن حق، ماذا فعلنا بما بدأه. أين الوزنات. وسيرى، بأسى رافقه حتى مماته، كيف أن أكلة الجبنة يتكاثرون ولا جبنة ولا من يحزنون. معها حق رفيقة الدرب روز رينه حين قالت "من حسن حظ فؤاد أنه مات ولم يبصر ماذا يجري في أرض وطنه. لا يرى كيف يهدمون ما صنع"... أما الشهابيون الجدد، فسيسمعهم يقولون: فؤاد شهاب لم يمت والطريق إلى الدولة... مستمرة!